إلى أسماء عزايزة ومعن أبو طالب

وُلدت في بلدة كردية سورية اسمها عامودة، بلدة المليون شاعر، ولا يضاهيها في هذا الرقم الشعري داخل بلادنا سوى مدينة السلمية. تقلّدت عامودة هذا اللقب بعد حريق سينماها الذي أودى بحياة 285 طفلاً في 13 نوفمبر 1960، لأن دار السينما الطينية، واسمها "شهرزاد"، كانت تعرض فيلماً مصرياً لدعم ثورة المليون شهيد في الجزائر، قبل أن تلمس شرارة من جهاز العرض القديم الستائرَ المصنوعة من الخيش وتشبّ النار في قش السقف وعوارضه وكراسي الخشب داخل الصالة المكتظة بتلاميذ المدارس. بسبب ما سمعتُه في صغري من قصص هذا الحريق، كالذين أفلتوا من اللهب حين قفزوا من النوافذ فهووا في البئر أو شوَتِ النيرانُ أجسادهم الغضّة حتى شمّها أهالي القرى القريبة فأتوا على عرباتهم مسرعين لاعنين جمال عبد الناصر، أيام الوحدة بين الشقيقتين سورية ومصر، بسبب هذا الحريق الذي اندلع وخمد قبل ولادتي بسنين عديدة وقُيّد في ملفات الشرطة "ضد مجهول"، ظللتُ لوقت طويل أخشى النقاط البيضاء المتراقصة على أطراف الشاشة أثناء عرض الأفلام، وكنتُ عند النظر إلى بياض الشاشة الكبيرة، قبل إعتام الصالة وبدء الفيلم، أبصر الذباب الطائر الغريزي فأتوهّمه نوعاً من تلك الشرارات الفتّاكة وليس نذيراً بانفصال شبكيتي الوشيك، ولا أزال إلى الآن أتفقّد أولاً مخارج الطوارئ في صالات السينما وأتأكد من مواضعها قبل بدء العروض.

كان لي في بلدتي هذه صديق مغرمٌ بعناوين الكتب، وكان بالفعل قد حفظ منها عدداً هائلاً. كان يقرأ بطاقات الإعارة في مكتبات المدارس والمركز الثقافي ومعجم البابطين وصفحات الإصدارات الجديدة في الصحف اللبنانية ومجلة العربي، ولا أتذكر أنه قد قرأ أي كتاب يوماً. بالنسبة إليه، كانت العناوين أهمّ من المحتوى، لأنها العصارة أو المفتاح، ولا داعي منطقياً ليخوض بحراً من الثرثرة في رواية أو ليلتهم كتاباً من كتب الدراسات والنقد المعروفة بالرصانة والعمق، ولا داعي لتقليب تلة من الأوراق فقط لكي يعود مرة أخرى إلى نقطة الصفر لأنه لن يتذكر شيئاً من الكتاب إلا عنوانه. كثيراً ما لاذ به شعراء من القرى المجاورة، طبعوا دواوينهم على نفقتهم، ليجد لهم عنواناً لا مثيل له، ولكنه، بحدود علمي، لم يقترح عنواناً لأحد إلا عبارات شديدة الطول أو أفعال أمْر مؤلفة من حرف واحد مثل "قِ" "رَ" "عِ"، وهذيانات حروفية لأصدقائنا البدو محبّي الشعر من قبيل إن "الراعي" عين العقل، مشتق من الرؤية والوعي، البصر والبصيرة. كان يروق له الردّ علينا إذا حميت نقاشاتنا بعنوان واحدٍ من تلك الكتب التي لم يقرأها، فيأتينا جوابه قصيراً

مفحماً ومن دون إيضاحات، فكنا إذا قهقهنا تطيّر كالمتعوّذين وقال «الضحك والكارثة» قاصداً ديوان الشاعر السوري بندر عبد الحميد. لم يكن حلّ الأحجية سهلاً على الدوام، لاستحالة مجاراته في هوسه. فمن كان سيعرف مؤلف «أحزان القمر الأخضر» أو «الحبّ واللاهوت» أو «وراء السراب»؟ كانت لهذا الصديق تصانيفه الخاصة، فكان مثلاً يصنّف الشعر السوري إلى حزبين متصارعين على السلطة وهما وزارة النثر واتحاد التفعيلة، يتزعّمُ الحزبَ الأول أنطون مقدسي في وزارة الثقافة السورية التي طبعت للكثيرين من شعراء قصيدة النثر السوريين، ويترأس الحزب الثاني علي عقلة عرسان المدافع الصنديد عن حصون العروبة وأحدها حصن الشعر الموزون في اتحاد الكتاب العرب، ووشى بذكرياته رفاقه في سلاح الكلمة، لأن الرفاق البعثيين كالرفاق الشيوعين آمنوا بأن الكلمة سلاح، قائلين إن عرسان كان يتسلق في صباه منارةَ جامع قريته بريف درعا، مهد الثورة السورية لاحقاً، ولهذا برع في الوصولية.

كان لنا صديق آخر دعوناه النحّات، يكتب بالكردية ويجيد العمل بيديه، ويسكن لصق السينما المحترقة التي تحوّلت بمرور الوقت من محرقةٍ إلى حديقة صغيرة. كنا نلتقي هناك أحياناً، فنتحلّق حول البئر المردومة، تحت ظلال الصنوبر. كان النحات يقول إن المعرفة نسبية، ويردّ على صديقنا المغرم بالعناوين سائلاً إياه أحياناً إن كان يعرف اسمَ حلاق مارادونا أو اسمَ القابلة القانونية لإسحاق نيوتن. كان النحات قد صنع مجسّماً مصغّراً نسخه عن كولوزيوم روما، جمع أحجاره الناعمة من السيول المنحدرة من سفوح طوروس وينابيع سري كانيه (رأس العين)، وأجساد أجداده وأعمامه التي كانت مقالع للحصى حيث تتحجّر الآلام المكتومة في أحشائهم على مرّ السنين مثلما تبلّر المحاراتُ اللآلئ ببطء شديد في ظلمات البحر. قال النحات فيما بعد، متندّراً على كلمة "مشروع" وفكرة "شاعر المليون" المسروقة بالتأكيد من عامودة، إنه قد بدأ مشروع المليون حصاة تخليداً لأمه في عمل فنّي يضمّ بعضاً من بقاياها، فدسّ حصياتِ مرارتها في أساسات المجسّم الذي تحوّلت حلبةُ موته الرومانية إلى حصّالة لأسنان العائلة وحصيات مراراتها وكُلاها، حصّالة ضخمة منصوبة خلف ستارة بيضاء مطرزة بالزهور، كانت أشبه بتلك المنافض المطعّمة بالأصداف، يوارون فيها الأسنان الاصطناعية للعجائز الذين رحلوا، وأضراسهم وأسنان أحفادهم اللبنية. أمام السهول المعشوشبة المترامية، كنا نقرأ عن ظهر قلب قصائد صوفية للملا الجزيري، وكان المحظوظ بيننا من يحتضن حصالة فخّارية كنا نسمّيها "مطمر البراءة" ومحتواها أسنانه اللبنية، وعند هزّها، في نهارات الربيع الساكنة الوافرة الشمس، تكون الخشخشة هي الموسيقى المصاحبة لقراءة الشاعر الغرّ شعرَه وهو جالس على الأرض، تحت قبة السماء الواسعة، وبداه

تراقصان شفتيه وعيناه مغمضتان وصوته صادح في البرّية. لكن ربيع الأكراد، كما يعلم كثيرون، دموي، وشهرهم آذار شهر المسرات والمصائب. بعد حريق كبير التهم سجناء أكراد كثيرين داخل سجن الحسكة في آذار 1993، أثناء واحدةٍ من قراءاتنا الشعرية في البراري وقد اخضرّت الأرض، قال النحّات إن الدم يصير ماء وعشباً، فإصابة نابليون بعمى الألوان، جعلته يوغل في مجازره أثناء الربيع، حين سالت الدماء خضراء أمام عينيه فلم يميّزها عن نضارة العشب.

الكاتب: جولان حاجي